

بين شاعرين عشقا الحياة وتغنيا بها

د. سعاد إبراهيم محمد عبد الله.
أستاذ مساعد - رئيس قسم اللغة العربية بكلية التربية للبنات ببلقرن -
بجامعة الملك خالد.
الجنسية : سودانية. (مقيمة بالمملكة العربية السعودية).
Email : setonaalaulaya@hotmail.com

قد يتقدم العمر بالإنسان وتتطاول به الأيام والسنون دون ما فائدة تذكر ، وأيضاً ربما لا تمهله يد المنون طويلاً فتختطفه وهو في ريعان الشباب أو في مقتبل العمر ، ولكنه يستطيع أن يسجل اسمه في سجل الخالدين على مر الزمان قبل أن تدركه يد المنية. وهذا بالتحديد ما حدث مع شاعرين من شعراء الوطن العربي من شعراء العصر الحديث ، اللذين استطاعا أن يصارعا الدهر ويغالبا المرض العضال الذي كمن لهما بين الضلوع فأشعلها ناراً لها ضرام ، ولكنهما لم يستسلما له وإنما قدما روحيهما قرباناً لما آمنا به من حب للشعر والأدب فسارا مع الشعراء والأدباء في الموكب المهيّب ، وهو موكب الشعر. والشعراء الذي خلد اسميهما في سجله مع الخالدين.

هما شعاعان من نور لمعا في سماء الشعر والأدب ، ومن عجب أنهما قدما إلى الدنيا معاً ورحلا عنها مبكراً بعد أن غيب الموت جسديهما في التراب وهما لا يزالان في مقتبل الشباب المقبل على الحياة ليرتوي من كأسها وينهل من معينها ولكن القدر كان لهما بالمرصاد فلم يمهلها طويلاً ، غير أنهما باقتا الدهر على غفلة منه وسجلا اسميهما بمداد من ذهب وأحرف من نور قبل أن ينطفئ شعاع الأمل الذي أضاء لنا دروب الشعر ؛ ليخلدهما التاريخ في صفحاته المشرقة والناصعة كشاعرين

من شعراء العصر الحديث ، عشقا للحياة وتغنيا بها. ولم يرد القدر أن يفرق بينهما كثيراً في المولد حيث ولد الأول منهما بقرية الشابية بالقرب من مدينة توزر جنوب تونس في العام 1909م وولد الثاني في السودان بمدينة أم درمان في العام التالي 1910م .

الأول هو الشاعر التونسي المعروف بحبه وعشقه للحياة وهو (أبو القاسم محمد أبو القاسم الشابي) ، والذي ارتبط اسمه بالحياة التي أحبها وعشقها كثيراً حتى أنه عُرف بها فلقب بشاعر الحياة ، وهو الذي لم يتجاوز عمره — حينما اختطفته يد المنون في العام 1934م — الرابعة والعشرين ربيعاً ، وكما تقاربت إطلاتهما على الدنيا لم يشأ القدر أن يفرق بينهما في الرحيل عنها ، إذ لم تمهل المنية شاعرنا الثاني وهو الشاعر السوداني (أحمد التجاني يوسف بشير بن الإمام جُوزي الكتيابي) أكثر من ثلاثة أعوام ليلحق بصنوه ورفيق دربه في العام 1937م (لهما الرحمة والمغفرة).

— حياتهما :

إن الناظر لحياة هذين الشاعرين (الشابي والتجاني) يجد أن بينهما بعض السمات المشتركة والتي جمعت بينهما — غير المولد وقصر الفترة التي عاشاها — ، حيث نجد : التعليم الأولي الذي تلقياه ، التعلق بالطفولة والشباب ، رهاقة الحس المشوبة بمسحة من الحزن الغامض ، حب الحياة والتمسك بالأمل ، النظرة الفلسفية والتصوف ، المرض الذي أودى بحياتهما.

— التعليم :

لقد تلقى كلاهما تعليماً دينياً في مسيرته التعليمية حيث أتما حفظ القرآن الكريم في فترة مبكرة من حياتهما وهي مرحلة الطفولة. إذ أتم الشابي حفظ القرآن الكريم بأحد الكتاتيب في قريته ثم انتقل إلى جامع الزيتونة لإكمال تعليمه في مجال العلوم الدينية والشرعية ، وما إن تم له التخرج في العام 1927م حتى التحق بكلية الحقوق التي تخرج فيها عام 1930م .

وبينما أكمل الشابي تعليمه الجامعي نجد أن التجاني قد بدأ بحفظ القرآن الكريم بخلوة⁽¹⁾ جده الكتيابي ، وقد كتب التجاني أبياتاً يصور فيها تلك الفترة المبكرة من عمره حيث يقول :

هَبَّ من نومه يدغدغ عينيه مشيحاً بوجهه في الصباح
حنقت نفسه وضاقته به الحيلة واهتاجه بغيض الرواح
ومشى بارماً يدفع رجله ويكي بقلبه الملتاح
ضمخت الدواة ثوبه وروّت رأسه من عبيها الفواح

انتقل التجاني إلى المعهد العلمي بأم درمان — بعد أن أكمل حفظه للقرآن الكريم — ليتلقى علوم الشريعة واللغة العربية فيه ، غير أن الحظ لم يحالف ذلكم الفتى الذي تم فصله من قبل إدارة المعهد دون أن يكمل سنوات دراسته ؛ وذلك بعد أن اتهم بالكفر من قبل زملاء الدراسة ؛ وذلك حينما دار بينهما نقاش أدبي فكري حول الشاعرين المصريين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ، وكان التجاني من أنصار ومحبي شوقي ، فقال — أثناء حرارة النقاش — : إن ديوان شوقي كالقرآن بين سائر الكتب. فترل هذا القول كالصاعقة على آذان زملائه فأخرجوه من ملة المسلمين ورموه بالكفر ، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد بل انطلقوا مسرعين وهم ينقلوا الخبر إلى الإدارة ، فما كان من مدير المعهد إلا أن أصدر قراراً يقضي بفصل التجاني واستبعاده وحرمانه من الدراسة في هذه المؤسسة الدينية . ولم يستطع التجاني أن يمحو هذه الحادثة من ذاكرته فسجلها في إحدى قصائده التي يقول فيها :

قالوا وأرجفت النفوس وأوجفت * هلعاً وهاج وماج قسور قابه
كفر ابن يوسف من شقي واعتدى * وبغى .. ولست بعابئ أو آبه
قالوا احرقوه بل اصلبوه بل انسفوا * للريح ناجس عظمه وإهابه
ولو أن فوق الموت من مُتلمس * للمرء مدّ إليّ من أسبابه
— الطفولة والشباب :

كان لمرحلة الصبا أثرها الجميل في حياة كلا الشاعرين إذ كان لهذه المرحلة هوىً في نفسيهما بلغ بهما حدا دفع بهما إلى الاحتفاظ بتلك الصورة البراقة لحياة اللهو والمرح في بداية الصبا والتي تتسم بكثير من مظاهر الحرية والتحلل من القيود والضوابط المقيدة للحركة والنشاط المتدفق في تلك الفترة المبكرة من عمر الإنسان.

فصور لنا الشابي تلك المرحلة النابضة بالحياة في إحدى قصائده الطويلة التي بلغت أبياتها السبعين بيتاً مفعمة بالحياة وهي تضحج بالصخب وملئمة بشتى صنوف البراءة. نختار هنا بعض أبيات منها ، يقول فيها الشابي :

كَمْ مِنْ عُهُودٍ عَذْبَةٍ * فِي عَدْوَةِ الْوَادِي النَّضِيرِ
فَضِيَّةِ الْأَسْحَارِ مُذْهَبَةٍ * الْأَصَائِلِ وَالْبُكُورِ
كَانَتْ أَرْقُ مِنْ الزُّهُورِ * وَمِنْ أَغَارِيدِ الطُّيُورِ
وَأَلَذَّ مِنْ سِحْرِ الصَّبَا * فِي بَسْمَةِ الطِّفْلِ الْغَرِيرِ
قَضَيْتُهَا وَمَعِيَ الْحَبِيبَةُ * لَا رَقِيبَ وَلَا نَذِيرَ
إِلَّا الطُّفُولَةَ حَوْلْنَا تَلْهُو * مَعَ الْحُبِّ الصَّغِيرِ
أَيَّامَ كَانَتْ لِلْحَيَاةِ * حُلَاوَةُ الرُّوضِ الْمَطِيرِ
أَيَّامَ لَمْ نَعْرِفْ مِنَ الدُّنْيَا * سِوَى مَرَحِ السُّرُورِ
نَبْنِي فَتَهْدُمُهَا الرِّيَّاحُ * فَلَا نَضِجُ وَلَا نُثُورُ
وَنَعُودُ نَضْحَكُ لِلْمَرْوَجِ * وَلِلزَّنَابِقِ وَالْعَدِيرِ

أَحْيَا كَمَا تَحْيَا الْبَلَابِلُ * وَالْجُدَاوِلُ وَالزُّهُورُ
لَا نَحْفَلُ الدُّنْيَا تَدُورُ * بِأَهْلِهَا أَوْ لَا تَدُورُ

كذلك لم يفت التجاني أن يخلد هذه المرحلة العمرية وأن يرسم لها صورة شعرية حية ومعبرة عما يجول بخاطره من ذكريات صور فيها جزءاً حبيباً إلى نفسه من حياته المبكرة ، فقال في قصيدة من قصائده نحتزئ منها هذه الأبيات:

أَنَّهَا ثَوْرَةُ الشَّبَابِ لَمْ أَجِدْ كَالشَّبَابِ * يَيْسَا مَرَاعِيهِ وَلَا كَالصَّبَا أَعَزَّ لِعَيْنِي
يَفْرَحُ الطِّينُ فِي يَدَيَّ فَأَلْهُو * جَاهِدًا أَهْدِمُ الْحَيَاةَ وَأُبْنِي
كَمْ أَشِيدُ الْحَصَا قُصُورًا وَكَمْ أَكْبِرُ * مِنْ شَأْنِهَا وَأَقْدَرُ شَأْنِي
وَطَنِي فِي الصَّبِيِّ الدَّمَى وَالْتِمَا * ثِيْلٌ وَنَفْسِي وَمَنْ أُحِبُّ وَخَدَنِي
قُلْ لِهَذَا الصَّبِيِّ مَاذَا يَكْفِي * كَ إِذَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا عَيْبٌ جَنَ
هَذِهِ يَا أَبِي تَصَاوِيرَ مَا تَ * بَرَحَ دُنْيَايَ أَوْ تَزَايِلَ كَوْنِي
يَصْنَعُ الْغَابَ مَزْهَرِي وَيَشِيدُ الرَّ * مَلْ عَرْشِي وَيَبْعَثُ اللَّهُوْ أَمْنِي
هِيَ دُنْيَا الصَّبِيِّ لَا جَنَّةَ الشَّيْخِ * تَفِيضُ النِّعَمِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ
— رهافة الحس:

أشعر وكأنما التقى كل من الشابي والتجاني عند مغيب الشمس
وهي تودع الأفق فكانا أشبه بدمعتين حرتين حزنتين انحدرتا على خد الشفق
المخضب بالدماء ، وكأن الكون قد شعر بدنو أجلهما واستشعر لحظات أو اقتراب
لحظات الوداع فرثاهما بتلك الدمعة الثخينة وهو يلوح لهما مودعاً بعد أن واراها
الثرى في تلك اللحظات العصبية والجمع يغالب الدموع المنهمرة على الحدود
ويكفكفها دمعة إثر دمعة. إنه الوداع والفراق الأبدي ، هنا طافت بذاكرتي أبياتاً
للشاعر المصري إبراهيم ناجي يقول فيها:

داوِ نارِي والتياعي * وتمهّل في وداعي
يا حبيب العمر هب لي * بضع لحظاتٍ سراع
قف تأمل مغربَ العم * ر وإخفاقَ الشعاع
وابكُ جَبَّارَ الليالي * هذه طول الصراع
ما يهمّ الناس من نج * م على وشك الزماع
غاب من بعد طلوع * ونخبا بعد التماع

لقد جمع بين شاعرينا هذا الشعور الحزين المشوب برهافة الحس والعواطف المتدفقة
كشلال هادر ، كذلك لا يفوتنا أن نتوقف هنا للحظات لندقق في رقة المشاعر

والوجدان لدى الشاعرين لاسيما الشابي الذي كان عبارة عن شعلة من العواطف
الجياشة ، والذي لا أشك في أنها هي السبب وراء المسحة الحزينة التي تبدو
واضحة في قصائدهما الممزوجة بجرس موسيقي يكاد الفؤاد يتفطر منه حزناً ويتقطر
ألماً ؛ الأمر الذي يملأ نفس القارئ أسىً ويشعلها حزناً ، حتى دون أن يعلم بأحدهما

قد غادرا الحياة وهما في زهرة العمر . يقول الشابي

إني أنا التائي الذي لا تنتهي * أنغامه ما دام في الأحياء
وأنا الحُضَمُّ الرُحْبُ ليس تزيده * إلا حياة سَطْوَةُ الأنواء
أما إذا خمدت حياتي وانقضت * عُمُرِي وأخرستِ المنية نائي
وخبا لهيب الكون في قلبي الذي * قد عاش مثل الشُعْلَةِ الحمراء
فأنا السَّعيد بآئني مُتَحَوِّلٌ * عن عالم الآثام والبغضاء
لأذوب في فجر الجمال السرمدي * وأرتوي من منهل الأضواء

تأمل معي — قارئ الكريم — هذه الأبيات وانظر إلى ما احتوته بين شطراتها من

جراح عميقة مؤلمة لنفس القارئ فما بالك بالشاعر:

أبدأ ينوحُ بحرقَةٍ * بين الأمانِي الهَاوِيَةِ
كالْبُلْبُلِ الغرِيدِ ما * بين الزُّهُورِ الدَّاوِيَةِ
كم قد نَضَحْتُ لَهُ بَأْنٍ * يَسْلُو وَكَمْ عَزَيْتُهُ
فأبي وما أصغى إلي * قولي فما أجدتُهُ
كم قلتُ صبراً يا فؤادُ * ألا تكفُّ عن النَّجِيبِ
فإذا تَجَلَّدَتِ الحَيَاةُ * تَبَدَّدَتِ شُعْلُ اللَّهْيَبِ
يا قَلْبُ لا تجزعْ أمامَ * تَصَلْبِ الدَّهْرِ المَهِصُورِ
فإذا صَرَخْتَ توجُّعاً * هَزَأَتْ بَصَرَخَتِكَ الدُّهُورُ
يا قَلْبُ لا تَسْخُطْ على * الأيامِ فالزَّهْرُ البَدِيعُ
يُصْغِي لَضَجَّاتِ العَوَاصِفِ * قَبْلَ أَنْغَامِ الرَّبِيعِ
يا قَلْبُ لا تَقْنَعْ بِشَوْكٍ * اليَأْسِ مِنْ يَمِينِ الزُّهُورِ

فَوَرَاءَ أَوْجَاعِ الْحَيَاةِ * عُذُوبَةُ الْأَمَلِ الْجَسُورِ

لَكِنَّ قَلْبِي وَهُوَ * مُخْضَلُّ الْجَوَانِبِ بِالدُّمُوعِ
جَاشَتْ بِهِ الْأَحْزَانُ إِذْ * طَفَحَتْ بِهَا تِلْكَ الصُّدُوعُ
يَبْكِي عَلَى الْحُلُمِ الْبَعِيدِ * بَلُوعَةً لَا تَنْجَلِي
غَرْدًا كَصَدَّاحِ الْمَوَاتِفِ * فِي الْفَلَا وَيَقُولُ لِي
طَهَّرْ كُلُّوْمَكَ بِالدُّمُوعِ * وَخَلِّهَا وَسَبِيلَهَا
إِنَّ الْمَدَامِيعَ لَا تَضِيغُ * حَقِيرَهَا وَجَلِيلَهَا
فَمِنْ الْمَدَامِيعِ مَا تَدْفَعُ * جَارِفًا حَسَكَ الْحَيَاةُ
يُرْمِي لِهَاوِيَةِ الْوُجُودِ * بِكُلِّ مَا يَبْنِي الطُّغَاةُ
وَمِنْ الْمَدَامِيعِ مَا تَأْلُقُ * فِي الْعَيَاهِبِ كَالْتُّجُومِ
وَمِنْ الْمَدَامِيعِ مَا أَرَاخَ * النَّفْسَ مِنْ عَبْءِ الْهُمُومِ
فَارْحَمْ تَعَاسَتَهُ وَنُحْ * مَعَهُ عَلَى أَحْلَامِهِ
فَلَقَدْ قَضَى الْحُلُمُ الْبَدِيعُ * عَلَى لَطَى آلَامِهِ
يَا شِعْرُ يَا وَحْيَ الْوُجُودِ * الْحَيِّ يَا لُغَةَ الْمَلَايِكِ
غَرَّدْ فَأَيَّامِي أَنَا تَبْكِي * عَلَى إِبْقَاعِ نَايِكِ
رَدِّدْ عَلَى سَمْعِ الدُّجَى * أَتَاتِ قَلْبِي الْوَاهِيَةَ
وَاسْكُبْ بِأَجْفَانِ الزُّهُورِ * دُمُوعَ قَلْبِي الدَّامِيَةَ
فَلْعَلَّ قَلْبَ اللَّيْلِ * أَرْحَمَ بِالْقُلُوبِ الْبَاكِيةِ
وَلَعَلَّ جَفْنَ الزَّهْرِ * أَحْفَظُ لِلدُّمُوعِ الْجَارِيَةِ

كذلك عندما نلتفت ونتوجه بنظراتنا إلى التجاني نجد أن قصائده تفيض بتلك
النظرة الحزينة والدموع الشخينة التي لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده ، فاستمع
إليه وهو يقول :

يَا دَمْعَةً فِي الْوُجُودِ حَائِرَةً * تَمُوجُ فِي جَفْنِهِ وَتَضْطَرِبُ

تَدْنُو مِنَ الشَّطِّ وَهِيَ وَالْهَمَّةُ * حَيْرَى وَتَنَأَى مِنْ حَيْثُ تَقْتَرِبُ
تَحْدِرِي فِي الزَّمَانِ وَانْطَلِقِي * إِذَا تَدَلَّى مِنْ كَرَمِهِ الْعَنْبُ
لَا أَحْسَبُ أَنَّ الْقَارِئَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ عَيْنِيهِ مِنْ أَنْ يَتَحَدَّرَ مِنْهَا الدَّمْعُ حِينَ يَقْرَأُ
هَذِهِ الْأَبْيَاتَ الْمَشْحُونَةَ بِالْعَوَاطِفِ وَالْمَشَاعِرِ الْحَزِينَةِ يَعْبُرُ بِهَا الشَّاعِرُ عَنْ نَفْسِ
مَكْلُومَةٍ وَجَرِيحَةٍ ، فيقول :

وَلَمَحَّةٌ مِنْ تَرَاقِيقِ الصَّبَا عَبْرَتْ * دُنْيَايَ كَالسَّحَرِ لَمْ أَحْفَلْ بِهَا أَبَدًا
وَدَعْتَهَا غَيْرَ مُرْتَاعٍ لِفِرْقَتِهَا * قَلْبًا وَلَا رَاجِفٍ مِنْ أَجْلِهَا كَبَدًا
حَتَّى إِذَا مَا اسْتَقَرَّتْ فِي مَخَابِئِهَا * رَجَعْتُ أَسْأَلُ عَنْ آثَارِهَا الْأَبَدَا
طَوَى شَبَابِي ذِكْرُهَا عَلَى أَلَمٍ * وَسَوْفَ تَخْلُدُ إِنْ مَاتَ الشَّبَابُ غَدًا
وَنَجِدُهُ هُنَا يَعْزِفُ عَلَى ذَاتِ الْوَتْرِ الْحَزِينِ فَيَسْكُبُ الْعِبْرَاتِ وَيَطْلُقُ الزَّفَرَاتِ حَارَةً ،
ليقول :

رَنَقَتْ كَالنَّدَى عَلَى الْوَتْرِ الْبَا * كِي رَفِيقًا وَكَالْأَمَانِي تَارَهُ
أَطْلَقَ الْوَجْدَ مِنْ يَدَيْهَا كَنَارٍ * يَ هَوَى وَاسْتَفْزَرَ مِنْهَا هِزَارَهُ
هَبَطَتْ دَمْعَةٌ هُنَاكَ وَمَاجَتْ * نَغْمًا مُبْهِمًا وَفَاضَتْ إِشَارَهُ
حَدَرَتْهَا أَنْفَاسُهُ فَالْفَضَاءَ الرَّ * حَبَّ شَيْءٍ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ آثَارَهُ
صَوَّرَتْهَا أَنْغَامُهُ فَهِيَ مَا تَبَرَّ * حَ فِي مَوْجِهِ الْأَسَى دِيَارَهُ
سَكَبَتْ رَوْحَهَا وَأَفْرَغَتْ الْأَنْفَا * سَ رِفَافَةً بِهَا هِدَارَهُ
مَلَأَ آهَاتِهَا الْهَوَى وَالْحَنَانَ الْجَ * مَ وَالْعَطْفَ وَالرِّضَا وَالْحَرَارَهُ
وَلَا أَحْسَبُ أَنَّ الْقَارِئَ سَيُخْفِي عَلَيْهِ أَنَّ الشَّابِي قَدْ تَمِيزَ عَلَى التَّجَانِي حِينَ تَدْفُقُ
شَعْرَهُ وَانْسَكَبَتْ أَحَاسِيْسُهُ مَعْبَرَةً عَمَّا يَجِيْشُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ ؛ لِذَلِكَ نَجِدُهُ أَكْثَرَ حَزَنًا
وَأَكْثَرَ أَلَمًا وَلَكِنْ مَعَ قُوَّةٍ لَا تَتَزَعَزَعُ ، فَهُوَ الْقَائِلُ :

سَأَعِيشُ رَغْمَ الدَّاءِ وَالْأَعْدَاءِ * كَالْبَنَسْرِ فَوْقَ الْقِمَّةِ الشَّمَاءِ
أُرْتُو إِلَى الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ هَازِنًا * بِالسُّحْبِ وَالْأَمْطَارِ وَالْأَنْوَاءِ
لَا أَرْمُقُ الظِّلَّ الْكَثِيبَ وَلَا أَرَى * مَا فِي قَرَارِ الْهُوَّةِ السَّودَاءِ

— حب الجمال وعشق الطبيعة :

لقد قادتما رهافة الحس التي تملكتهما معاً إلى حب الحياة وعشق الطبيعة. كأنما كانا على علم بأن يد المنون ترتبص بهما في ذلك الوقت المبكر لتقطف تلك الزهرة التي أطلت على الدنيا وما زالت ترنو إلى الأفق البعيد وهي تنتظر أن تستقبل ضوء الشمس المشرقة ، غير أن الحياة قد بخلت عليهما بمزيد من العمر ولم تدعهما حتى لينعمان بمباهج تلك الحياة القصيرة التي منحت لهما ، حيث كان المرض الكامن بين الضلوع يقف لهما بالمرصاد ، ولكن وعلى الرغم من كل تلك المعاناة ومع قصر الفترة التي عاشها كل من الشاعرين إلا أنهما قد بذلا الكثير من الجهد من أجل الحياة وتغنيا بجمالها.

يقول الشابي :

سِرْتُ فِي الرُّوضِ * وَقَدْ لَاحَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ
وَجَنَاحُ الْفَجْرِ يَوْمِي * نَحْوَ رَبَّاتِ الْجَنَاحِ
وَالدُّجَى يَسْعَى رُؤَيْدًا * سَعَى غَيْدَاءَ رَدَّاحِ
وَنَسِيمُ الصُّبْحِ يَسْرِي * سَجَسَجًا فَوْقَ الْبِطَاحِ
وَحَرِيرُ النَّهْرِ سَكْرًا * نَ وَزَهْرُ الرُّوضِ صَاحِ

ويعبر الشابي في الأبيات التالية عن فلسفة تفكيرية ونظرة تأملية في هذا الوجود ما فيه من طبيعة ساحرة ليلفت انتباهك إلى ما غاب عن ذهنك من الجمال الخلاب المنتشر في الطبيعة:

يَا أَيُّهَا الْغَابُ الْمُنْمُ * مَقُ بِالْأَشْعَةِ وَالْوَرْدُ
يَا أَيُّهَا النَّوْرُ النَّقِيُّ * وَأَيُّهَا الْفَجْرُ الْبَعِيدُ
أَيْنَ اخْتَفَيْتَ وَمَا الَّذِي * أَقْصَاكَ عَنْ هَذَا الْوُجُودِ
أَهْ لَقَدْ كَانَتْ حَيَاتِي * فَيْكَ حَالَةً تَمِيدُ
بَيْنَ الْخَمَائِلِ وَالْجَدَاوِلِ * وَالتَّرْتُّمِ وَالنَّشِيدِ
تُصْغِي لِنَجْوَاكِ الْجَمِيلَةِ * هِيَ أُغْنِيَةُ الْخُلُودِ

وتعيشُ في كونٍ من * الغَفَلاتِ فتانٍ سَعِيدُ

آهٍ لقد غَنَى الصَّبَاحُ * فدمَدَمَ اللَّيْلُ العَتِيدُ

وتألقَ النّجْمُ الوُضِيءُ * فأَعْتَمَ الغَيْمُ الرُّكُودُ

ومضى الرّدى بسَعادتي * وقضى على الحُبِّ الوَلِيدُ

للطبيعة في شعر التجاني وجود بارز ويعود ذلك إلى طبيعة التجاني المتأمل والمتفكرة في الطبيعة والحياة من حوله ، فالقارئ لشعر التجاني يجد أنه أكثر ميلاً إلى الجانب الفكري والتأملي في قصائده وهو ما سيتجلى لنا في هذه الأبيات التي يقول فيها :

قَطراتٍ مِنَ النّدى رَقراقه * يصفقُ البَشَر دُونها وَالطَّلَاقه

ضمّنتها مِن بهجة الورد أفوا * ف وَمِن زهرة القرنفل باقه

نَثرت عَقدها أَصابعَ مَنْ نُو * ر تُرسلنَ خفةً وَأَناقه

رب وشي نَمَقنَ في صَفحةِ الور * د وَنَضَرَنَ في الرُّبى أَمَاقه

وَمَصابيحَ أَسرجتها يدُ الشَّم * س وَضَاءَ في زهرة خَفَاقه

يَتَقَطَرَنَ أَجْماً في أَكاليل * مِن الزهر أَسرجت أَوَراقه

وَأَفاقَ الضُّحى عَلَيا وَقَد رَو * ت أَزاهيره وَنَدت رواقه

تِلْكَ مَطْلولة وَهاتيك سَكْرى * مِن ندى دافق وَخَمَر مَراقه

وَهَيَّ بَراقة الضِّفاف وَمَرمو * قة بيض اللالئ البَراقه

نَفَضْتُها في الدَهر أَجَنَحَ الأم * لاك تِلْكَ الرِّفاة الصَّفَاقه

ويقول في قصيدة أخرى:

سَمَوَتِ بِالنور ما كا * ن في أشعة شَمس

وَبِالْجَمال مَتى كا * نَ في إنْطِلاق وَحَبس

وَبِالهُوى ما تَسامي * على ضلال وَلَبس

وَبِالْثَدِي حَيْث يَغْدو * وَبِالنَدى حَيْث يَرسى

طَفَرت مِن صرح قَلبي * إلى قِراءة نَفسي

وَكَنتُ كَالدَم يَضحي * على دَوي وَيُمسي

يَظَلُّ يَرْقَى وَيَهْوِي * مِن حَادِرٍ فِي بَحْسٍ
 وَكُنْتُ كَالْمَاءِ يَنْصُ * ب فِي دَرِي وَجَرَسٍ
 وَكُنْتُ كَالنُّورِ يَرْفُ * ض فِي إِضْطِرَابٍ وَهَمْسٍ
 مَلَأْتُ رُوحِي وَصَوَّرَ * ت فِي مَكَامِنِ حَسِي
 وَزَنْتُ يَوْمِي وَعَلَّقَ * ت فِي صَحِيفَةِ أَمْسِي
 وَمَا جَ قَلْبِي وَأَغْضَى * عَلَى جَلَالٍ وَقُدْسٍ
 وَرَاحَ يَرْكُضُ كَالْبَحْرِ * ر مِن جُنُونٍ وَمَسٍ
 يَا هَذِهِ عَمْرُكَ الَّل * ه هَلْ سَمِعْتَ بِقَيْسٍ
 — الفلسفة والتصوف:

لا شك أن الفلسفة هي وليدة التأمل بل لا بد فيها من التأمل والتفكير العميق مما يقود الفرد إلى حالة من حالات السمو الوجداني وهو سمة بارزة ومميزة اتصف بها أهل التصوف نسبة لإدانة النظر في الوجود وصانع الوجود. وقد كان للتعليم الديني الممتزج بنظرة تأملية واسعة نجحت عن كثرة القراءة والإطلاع أثره الذي لا يخفى في ما نظمته كل منهما من أشعار، حيث يبدو لنا ذلك وبصورة جلية وواضحة في النظرة التأملية العميقة في الكون والحياة التي نجدتها منتشرة في أشعارهما التي خلفاها لمحي الشعر وعشاق الأدب من بعد رحيلهما المبكر.

يقول الشابي:

فَلَلَّكَ اللَّهُ مِنْ فَوَادٍ رَحِيمٍ * وَلَكَ اللَّهُ مِنْ فَوَادٍ كَثِيبٍ
 يَهْجَعُ الْكَوْنُ فِي طَمَأْنِينَةِ الْعُصْ * فَوْرٍ طِفْلاً بِصَدْرِكَ الْغَرِيبِ
 وَبِأَحْضَانِكَ الرَّحِيمَةِ يَسْتَقِظُ فِي * نَضْرَةِ الضُّحُوكِ الطَّرُوبِ
 ويقول كذلك:

صَلِّ يَا قَلْبِي إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ الْمَوْتَ آتٍ
 صَلِّ فَالْتَّازِعُ لَا تَبْقَى لَهُ غَيْرُ الصَّلَاةِ

ونختار من ديوان التجاني هذه الأبيات من قصيدة رائعة ومعبرة عبر فيها التجاني عن فكر صوفي وجداني متعمق وإيمان عميق بالقدرة الإلهية حتى كأنه يدوي ويتردد صدهاء في الأفق البعيد :

مُدْهَش ذِكْرُهُ مُخِيفُ الْأَدَاءِ * خَيْرَ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ أَسْمَاءِ
 سر ما في الحَيَاةِ مِنْ لَيْلِهَا الطَّا * مي وَلَجَى فَجَرَهَا الْوَضَاءِ
 ظَمًا فِي الثُّفُوسِ لِأَرَى إِلَّا * فِي يَتَابِيعِهِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ
 كَوَكَبٍ يَزْحَمُ الْفَضَاءَ وَدَر * ي مَفِيزُ عَلَى جَبِينِ السَّمَاءِ
 هُوَ لَمَّا حَبَّرَهَا فِي حَوَاشِي اللَّي * ل أَوْ فِي مَضَارِبِ الصَّحْرَاءِ
 قِيلَ لِي عَنْهُ فِي الزَّمَانِ وَحَد * ثَت بِهِ فِي سَرِيرَةِ الْآنَاءِ
 إِنَّهُ النُّورُ خَافِقًا فِي جَبِينِ الْف * جَر وَاللَّيْلُ دَافِقًا فِي الْمَاءِ
 صَفَهُ رَعْدًا مُجْلَجَلًا فِي السَّمَو * ت وَصَوْتًا مُدَوِيًا فِي الْفَضَاءِ
 أَوْ هُدُوءًا أَوْ رَقَّةً أَوْ هَوَاءَ * أَوْ صَدَى لِلْعَوَاصِفِ الْهَوَاجِ
 هُوَ إِنْ شَتَّ مَحْضُ نَارٍ وَنُور * وَهُوَ إِنْ شَتَّ مَحْضُ بَرْدٍ وَمَاءِ
 نَحْنُ مَجْلَى عُلَاهُ فِي كُلِّ دَان * مِنْ مَرَائِي الْوُجُودِ أَوْ كُلِّ نَاءِ
 ظَنُّ أَدْنَى الظُّنُونِ فِي قُرْبِهِ مِنْكَ * وَأَقْصَى مَا شَتَّ مِنْ عَلِيَاءِ
 وَادْنُ بِالْجَانِحِ الْمَشْطِ وَصَعِد * بِالْخَيَالِ الْمَسُومِ الْعِدَاءِ
 وَتَوَغَّلْ بَيْنَ الظُّنُونِ وَنَفَر * هَا خَيَالًا وَقَعْدَ عَلَى الْجَوَازِ

أَهُوَ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ وَفِي الْأَنْفَا * س وَالرُّوحِ وَالْدُّجَى وَالضِّيَاءِ
 أَمْ هُوَ اللَّهُ فِي الثَّرَى عِنْدَ عِزْرَا * ثِيلَ وَقَفًا عَلَى قُلُوبِ النِّسَاءِ
 قَالَ كِلْتَاهُمَا مِنَ النُّورِ تَفْضَى * بِنِي مِنْ رَحْمَةٍ وَإِحْيَاءِ
 وَالنَّبِيِّ الْعَظِيمِ فِي الْأَرْضِ إِنْسَا * ن السَّمَوَاتِ آلِهِي الدِّمَاءِ
 صِلَةُ الْأَرْضِ بِالسَّمَاءِ وَصَوْتُ الْح * ق فِيهَا وَمُسْتَهْلُ الْفَضَاءِ
 يَا لَكَ اللَّهُ مِنْ مَشَايِعَةِ الْفَك * ر وَلِلْحَقِّ مِنْ هَوَى الْآرَاءِ

وتتجلى لنا قمة درجات التصوف الفكري أو العقلي وبصورة جليلة عند التجاني في .

قصيدته (الصوفي المعذب) والتي يقول فيها :

هَذِهِ الذُّرَّةُ كَمْ تَحْمُ * ل فِي الْعَالَمِ سَرًا

قَفْ لَدَيْهَا وَإِمْتَرَجْ فِي * ذَاتِهَا عُمَقًا وَعُورًا

وَانْطَلَقَ فِي جَوْهَا * الْمَمْلُوءِ إِيمَانًا وَبَرًا

وَتَنْقُلَ بَيْنَ كُبْرَى* فِي الذَّرَارِي وَصُغْرَى

تَرَكُلْ الْكُونُ لَا يَفْتُ * ر تَسْبِيحًا وَذِكْرًا

وَأَنْتَشِ الزَّهْرَ وَالزَّهْرَةَ * كَمْ تَحْمِلُ عُطْرًا

نَدِيتِ وَأَسْتَوْتِ فِي الْأَرْضِ * ضِإْعِرَاقًا وَجَذْرًا

وَتَعَرَّتْ عَنْ طَرِيرٍ * خَضَلُ يَفْتَأُ نَضْرًا

سَلْ هِزَارَ الْحَقْلِ مِنْ أَنْب * تَهْ وَرَدًا وَزَهْرًا

رَسَلَ الْوَرْدَةَ مَنْ أَوْ * دَعَهَا طَبِيبًا وَنَشَرَا

نَظُرُ الرُّوحِ وَتَسْمَعُ * بَيْنَ أَعْمَاقِكَ أَمْرًا

لَوْ جُودَ الْحَقُّ مَا أَوْ* سَعَ فِي النَّفْسِ مَدَاهُ

السُّكُونُ الْمُحْضُ مَا أَوْ * ثَقَّ بِالرُّوحِ عَرَاهُ

كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ يَمْشِي* فِي حَنَائِهِ الْإِلَه

— الموت عند الشعراء :

إن للموت مهابة وجلال رهيب في نفوس البشر ،

لاسيما وأن النفس قد فطرت على حب الدنيا ولا شك أن الإنسان يود لو يعمر

في هذه الحياة الدنيوية ولا يريد أن يبرحها أبد الدهر فهو مفطور على التمسك

والتشيت بحب الحياة والبقاء فيها ، هذا إن لم نقل إنه يطمع في الخلود فيها إلى أبد

الدهر ؛ يقول رب العزة تبارك وتعالى : چ ق ق ق چ ج چ چ

چ چ چ چ چ چ البقرة: ۹۶.

غير أن للموت لدى شاعرينا نظرة أخرى هي خليط أو قل مزيج من عدة مفاهيم حيث نجد أنهما يمزجان بين الإيمان بالله ، والتفكير الفلسفي ، والوجدان الصوفي ، وحب الحياة ... وغيرها من المفاهيم التي تتنازعهما وهما يعيشان مع وحي الشعر. ولتقف مع الشابي وهو يبدع هذه الأبيات ولنتأمل ما فيها من عشق متعمق للموت :

صَبِيَّ الْحَيَاةِ الشَّقِيَّ الْعَنِيدُ * أَلَا قَدْ ضَلَلْتَ الضَّلَالِ الْبَعِيدُ
أَتُنْشِدُ صَوْتَ الْحَيَاةِ الرَّحِيمِ * وَأَنْتَ سَجِينٌ بِهَذَا الْوُجُودُ
وَتَطْلُبُ وَرْدَ الصَّبَاحِ الْمَخ * ضَبَّ مِنْ كَفِّ حَقْلٍ حَصِيدُ
إِلَى الْمَوْتِ إِنْ شِئْتَ هَوْنُ الْحَيِ * أَيْ فَخَلَفَ ظِلَامُ الرَّدَى مَا تُرِيدُ
إِلَى الْمَوْتِ يَا ابْنَ الْحَيَاةِ التَّعِيسَ * فَفِي الْمَوْتِ صَوْتُ الْحَيَاةِ الرَّحِيمِ
إِلَى الْمَوْتِ إِنْ عَذَّبَتْكَ الدُّهُورُ * فَفِي الْمَوْتِ قَلْبُ الدُّهُورِ الرَّحِيمِ
إِلَى الْمَوْتِ فَالْمَوْتُ رُوحٌ جَمِيلٌ * يُرْفَرُ مِنْ فَوْقِ تِلْكَ الْغُيُومِ
فَرُوحًا بِفَجْرِ الْخُلُودِ الْبَهِيحِ * وَمَا حَوْلَهُ مِنْ بَنَاتِ النُّجُومِ
إِلَى الْمَوْتِ فَالْمَوْتُ جَاءَ رَوِيٌّ * لِمَنْ أَظْمَأَتْهُ سُمُومُ الْفَلَاةِ
وَلَسْتَ بَرَاؤِ إِذَا مَا ظَمِئْتَ * مِنَ الْمَنِيْعِ الْعَذْبِ قَبْلَ الْمَمَاتِ
فَمَا الدَّمْعُ إِلَّا شَرَابُ الدُّهُورِ * وَمَا الْحُزْنُ إِلَّا غَذَاءُ الْحَيَاةِ
إِلَى الْمَوْتِ فَالْمَوْتُ مَهْدٌ وَثِيرٌ * تَنَامُ بِأَحْضَانِهِ الْكَائِنَاتُ
إِلَى الْمَوْتِ إِنْ حَاضَرَتْكَ الْخُطُوبُ * وَسَدَّتْ عَلَيْكَ سَبِيلَ السَّلَامِ
فَفِي عَالَمِ الْمَوْتِ تَنْضُو الْحَيَاةُ * رِدَاءَ الْأَسَى وَقِنَاعَ الظَّلَامِ
كَذَلِكَ يَظْهَرُ لَنَا التَّجَانِي فِي الْأَبْيَاتِ التَّالِيَةِ الْكَثِيرِ مِنَ اللَّوْعَةِ وَالتَّفَجُّعِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَنْسَى أَنْ يَذْكُرَنَا بِمَا فِي الْمَوْتِ مِنْ عِبَرٍ وَدُرُوسٍ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَهْمَا عَظُمَ :
أَسْفَ مَرٍّ وَآهَاتٍ أَمْرٌ * وَالتِّيَاعُ مَلَأَ الْقَلْبَ شَرَرُ
وَعَصِيٍّ مَائِرٍ مُنْهَمَرٍ * يَتَدَلَّى زَمْرًا بَعْدَ زَمَرِ
كَمْ عَظِيمٍ مَشَتْ الدُّنْيَا بِهِ * فِي جَلَالٍ وَمَشَى فِيهِ الْقَدَرُ

زَهَتْ الْغَبَاءُ مِنْ وَطْأَتِهِ * وَنَهَى مَا شَاءَ فِيهَا وَأَمَرَ
فَإِذَا مَا انْقَضَ عَنْ آخِرِهِ * قَضَى الْأَمْرَ عَلَيْهِ فَإِنْ دَثَّرَ

لَفَهُ الْمَوْتُ عَلَى مَدْرَجَةٍ * وَرَمَاهُ الدَّهْرُ فِي كَفِّ الْغَيْرِ

إِنَّمَا مَوْتُ عَلِيمٍ عِظَةٌ * لَيْسَ كُلُّ الْمَوْتِ لِلنَّاسِ عِبْرٌ
أَيُّهَا الثَّائِي عَلَى بَلْقَعَةٍ * وَالْمَوَارِي بَيْنَ هَاتِيكَ الْخُفْرِ
أَيْنَ صَوْتِ سَامِهِ الْمَوْتُ الْبَلَى * وَيَرَاعُ بَيْنَ كَفَيْكَ عَثْرُ
جَرَهُ الْمَوْتُ عَلَى شِقَّتِهِ * فَتَشْنَى عَلَى الْأُخْرَى إِنْ كَسَرَ
— المرض الذي أودى بحياتهما:

لم يكن من الغريب أن يجتمعا في ما ذكرناه وأوردناه آنفاً ولكن
الغريب هو أن يتفقا حتى في الداء الذي ألم بهما وأدى إلى رحيلهما مفارقين لهذه
الدنيا مبكراً. حيث أصيب الشابي بداء تضخم القلب الذي تسبب في وفاته ، بينما
توفي التجاني بداء السل. فكان داء الصدر هو ما جمع بينهما حتى وهما يغادران هذه
الحياة الفانية إلى دنيا الخلود الذي عرفاه قبل أن تتخطفهم يد المنون.

للشابي ديوان (أغاني الحياة) بالإضافة إلى عدد من المؤلفات: الخيال
الشعري عند العرب ، صفحات دامية ، ورسائل الشابي ، يوميات الشابي ، بجانب
رواية عنوانها المقبرة، شعراء المغرب الأقصى.

أما التجاني فلم يترك غير ديوانه المسمى (إشراقة) والذي صدر بعد وفاته كما
كانت له إسهامات بالعديد من المقالات الصحفية ، حيث شارك بالكتابة في عدة
صحف : ملتقى النهرين ، مجلة أم درمان الفجر. كذلك اهتم بمراسلة العديد من
المجلات والدوريات في الوطن العربي كمجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات
، ومجلة أبولو.

- 1/ ديوان أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة.
- 2/ ديوان التجاني يوسف بشير : إشراقة.
- 3/ الموسوعة الشعر العربي الإصدار الأول - مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم. www.arpoetry.com
- 4/ الموسوعة العربية العالمية www.intaaj.net
- 5/ الموسوعة الشعرية www.cultural.org.ae
- [1] / يطلق الخلوة في السودان على المكان الذي يتلقى فيه الأطفال حفظ القرآن الكريم بجانب بعض مبادئ تعليم الحساب واللغة.